نهضة اللغة العربية

بقلم : نصرة سعيد

— ١ —

انه لما يفعم النفس اغتباطاً ان تتناول النهضة العربية اليوم شتى مضامير النشاط البشري . ففي السياسة توثب الى التحرر والوحدة ، وفي الاقتصاد نزوع إلى الانماء والاستقلال ، وفي المجال الاجتماعي سعي الى تكوين امة عربية تستند إلى أحدث ما أثبتت التجارب صلاحه والى خير ما ورثته في تقاليدها العريقة من طابع مميز . أما في الميدان الثقافي ، فمن المؤلم ألا يزال العرب يتلمسون الطريق السوي . فما هي أسباب هذا التخلف ؟

في رأينا ان العقبة الكبرى التي تحول دون انتشار الثقافة انتشاراً شاملا وعميقاً إنما هي صعوبة اللغة الفصحى . فلقد لمسنا ، إبان ممارستنا التدريس مدى ربع قرن ونيف ، أن الطالب ينهي دراسته الثانوية ولما يتمكن من لغته بحيث لا تخلو كتابته من أخطاء رغم ما بذله هو وأساتذته من جهد متواصل خلال اثني عشر عاماً .

ويعود ذلك الى ان اللغة التي يقرأها غير التي يتحدث بها . فكأن الطالب العربي يتعلم لغة اخرى لاعهد له بها في حياته خارج المدرسة . ولسنا مبالغين إذا قلنا بأنه يجد من العنت في تعلمها مثل ما يجد في تعلم لغة أجنبية إن لم يكن أكثر . وهو ان اراد التمكن منها لما تم له ذلك الا على حساب علوم أخرى أهملها تفرغاً لتعلم لغته باتقان .

لا يتوهمن أحد بأننا من الذين ينكرون قوة الفصحى وجمالها . فليتها كانت لغة البيت والسوق . اذن لما تعرضنا للمسألة على أنها مشكلة قومية تقتضي حلا . فنحن أول القائلين بان الفصحى أقرب اللغات الى الكمال بما يمتاز به هيكلها من سعة ومتانة ودقة . واننا تدليلا على قناعتنا بهذه الصفات نورد مثالا واحداً قد يغني عن عشرات من الامثلة التي نستطيع سوقها .

يقول الانكليزي « go » مستغنياً بهذه اللفظة عن خمسة الفاظ يستعملها العربي ليأمر بالذهاب . فيقول للواحد : اذهب ، وللاثنين أو الاثنتين : اذهبا ، ولجمع العقلاء : اذهبوا ، وللواحدة : اذهبي ، ولجمع الإناث : اذهبن .

لا شك في أن هذا التفصيل دليل على الدقة والمتانة والسعة . ولكن مما لاشك فيه ايضاً أنه يشكل صعوبة لا يتقبلها الشعب الميال بطبيعته الى الأخذ بالأسهل فلم يستعمل العرب في لغتهم الدارجة من تلك الالفاظ الخمسة الا ثلاثة فقط هي : اذهب ، اذهبي ، اذهبوا . ولك أن تقيس على ذلك بقية قواعد الصرف والنحو والكتابة .

لا مراء في أن المنزل المؤثث بالرياش الفاخر المتين والمفروشات العديدة الثمينة منزل جميل ممتاز . ولكن كم يكلف هذا الأثاث الضخم من عناء في الاقتناء وجهد في الصيانة ومشقة في النقل ؟

وهكذا فان سعة الفصحى ودقتها ومتانتها ، هذه المزايا العالية نفسها ، هي التي تثقل حركتها فتعيق انتشارها وتبطىء نموها . افلا يلاحظ كل بصير بأن الفصحى تكاد تكون وقفاً على الادباء ؟ وهؤلاء انفسهم ، على قلتهم ، يندر بينهم من يستطيع ان يتحدث بها بسهولة أو أن يقرأ دون ان يلحن . واذا قام سياسي خطيباً فكم من أخطاء جسيمة ترطم أسماع اللغويين والنحويين ؟ واذا استعرضنا الصحف اليومية نجد أنها تكاد لا تخلو من مخالفات فادحة لإحدى قواعد اللغة . والمدرسون أنفسهم ، وهم حملة الشهادات العالية ، يخطئون لافي الكلام بالفصحى فحسب بل حتى في كتبهم الموضوعة بين ايدي طلاب المدارس الثانوية . فكأن قواعد اللغة قائمة لتصبح مزالق للخطباء والصحفيين والمدرسين فضلا عن عامة الشعب .

ان الواجب القومي يحتم علينا تبسيط تلك القواعد لاسيما النحوية منها لتيسير استعمال اللغة في الحديث والكتابة على السواء دون ما خوف من الوقوع في خطأ . وان نحن فعلنا فسيتضاعف حتماً عدد الأدباء وقرائهم وعدد الصحف وقرائها . ومن جهة ثانية سيمكن عملنا هذا ناشئتنا من تحويل الجهد الذي يبذلونه في تفهم الصرف والنحو وتطبيقهما الى تفهم العلوم الأخرى كالرياضيات والكيمياء والطبيعيات وسواها التي نحن بأشد الحاجة اليها في العصر الحاضر .

لابد للعرب اذن من التفكير الجدي في أمر تبسيط قواعد لغتهم بحيث تصبح هذه اللغة العزيزة وسيلة للتعليم لا غاية له . واننا في هذه العجالة سنقترح بعض الحلول التي نراها كفيلة بالغرض المنشود . ولم يحدنا الى التطرق لهذا الموضوع الخطير الا اخلاصنا للعروبة وغيرتنا على مستقبلها ورغبتنا الصادقة في إتاحة السبيل أمام الأجيال الصاعدة من امتنا لأن تغترف من مناهل العلم والادب دون عنت ولا إكراه .

— ٢ —

كل حي يتطور . فمتى كف عن التطور كف عن الحياة . وما يقال عن الكائنات الحية ينطبق كل الانطباق على اللغة . بل إن جميع الكائنات الحية تولد وتنمو ثم تموت . أما اللغة فانها الكائن الحي الوحيد الذي لا يموت اذا ظل يتطور فان اردنا للغتنا الخلود يتحتم علينا الرضوخ لتطورها بل السعي الى تطويرها .

لنتتبع حياة اشهر اللغات الأجنبية كالفرنسية والانكليزية مثلا نجد أنها في تطور مستمر . فهناك فرنسية قديمة وفرنسية حديثة ، وانكليزية قديمة وانكليزية حديثة . فاللغة التي نظم بها رونسار أشعاره في القرن السادس عشر غير التي كتب بها راسين مسرحياته في القرن السابع عشر وغير التي يكتب بها سارتر في القرن العشرين . واللغة التي وضع بها شكسبير مسرحياته غير التي كتب بها برنارد شو . أما في اللغة العربية فتكاد لا تتمايز لغة اي من الأدباء المعاصرين ، فيما عدا اختلاف الأسلوب ، عن اللغة التي كتب بها الجاحظ أو عن التي خطب بها قس بن ساعدة .

الا ان العربية في الواقع بدأت كغيرها من اللغات بالتطور منذ نشأتها حتى

أواخر العصر الجاهلي . ولكن لما قامت الدعوة الاسلامية وانتشرت لغة قريش بالقرآن ، اعتبر العرب ما وصلت اليه لغتهم نهاية المطاف . ولما توسع فتوحاتهم واختلطوا بالأعاجم أخذت الرطانة تتطرق الى لسان العرب والمستعربين على السواء . فشرع النحويون يستنطقون اللغة قواعدها ويثبتون تلك القواعد المستنتجة خوفاً على اللغة ، لغة قريش ، من الانحراف . وان هم قد تمكنوا من المحافظة على سلامتها فما ذلك الا بين طيات الكتب . لأن الشعب هو الذي يصنع لغته ويحييها لا النحويون . وهذا ما حدث وما يحدث كل يوم في كل اللغات . فقد راحت الالسن تنطق لغة قريبة من الفصحى ولكن ليست إياها. وأخذت هذه اللغة تبتعد شيئاً فشيئاً عن لغة قريش الى أن كانت اللغة العامية . وعلى مر الأجيال وتباعد الاقطار نشأت في كل قطر عربي لغة تختلف اكثر أو أقل عن سواها من اللغات العامية الدارجة في أقطار أخرى .

اننا نستطيع اليوم ان ندعو هذا التحول عن الفصحى تطوراً . ولكنه تطور فاسد أحرى بنا ان ندعوه انحطاطاً وتدهوراً . غير أنه يدل مع ذلك على ان اللغة العربية لا تزال حية بفضل الشعب العربي الذي لا يزال يتكلم بها . لاشك في ان هذه الحياة منحطة لأنها بغير ضابط وبالتالي بغير وحدة تجمع بين شتى اللغات العربية الدارجة .

وتبعة ذلك تقع على اولئك الذين ارادوا تجميد اللغة في المرحلة التي وصلت اليها . وفاتهم أن التطور سنة محتومة على كل لغة تريد البقاء . ولقد انقادت الشعوب العربية لهذه السنة الطبيعية فأخذ كل شعب يطور لغته حسب هواه دون رادع ولا ضابط ولا مثقف في منحاه الجديد ، على اعتبار ان ما يتكلم به الشعب لا قيمة له في نظر أهل اللغة ، حتى اتسعت الهوة السحيقة التي تفصل بين لهجات الشعوب العربية من جهة وبين تلك اللهجات واللغة الفصحى من جهة ثانية .

اما الآن وقد وصلنا الى هذا الحد من البلبلة ، كيف السبيل الى الخروج من هذا المأزق الحرج ؟ انعتمد العامية أم الفصحى ؟

إن العامية ، رغم ما فيها من حيوية بسبب كونها لغة الحياة ، لاتصلح ، نظراً لتعدد لهجاتها ، لأن تكون لغة الأمة العربية المتطلعة الى الوحدة . إذ يصبح اعتماد كل شعب عربي على عاميته مدعاة للتفرقة وحائلا دون تقدم العلم والأدب اذ يتناقص عدد قراء الكتب والمجلات .

لم يبق لنا اذن الا ان نعتمد الفصحى. فهل نستطيع أن نبعثها من الكتب فنجعلها لغة التخاطب في البيت والسوق والمدرسة دون ان نحور فيها شيئاً البتة ؟

ليس ذلك مستحيلا كل الاستحالة ، على ما نعتقد ، إذ قد تكلم بها أجدادنا قديماً فمن الممكن ان يتكلم بها غداً احفادهم . ولكن الى كم من الزمن نحتاج لنجعل كل فرد قادراً على التحدث بها دون لحن اعتماداً منه على سليقته ؟

في رأينا أن ذلك يتطلب تقلب أجيال عديدة وبذل جهود هائلة . فهل يرضى العرب بتضحية تلك الأحقاب العديدة وهدر تلك الجهود الهائلة في سبيل احياء الفصحى كما كانت في آخر العصر الجاهلي ؟

كلا . ما من عربي مدرك مخلص يقبل بذلك ونحن في سباق مرير مع الزمن في هذا العصر ، عصر الذرة .

فما هي الأسس التي ينبغي السير عليها من أجل تطوير لغتنا العزيزة ؟

إننا نستطيع حصرها في ثلاث نقاط : أولا اصلاح الكتابة بحيث نجعلها سهلة التناول والتطبيق . ثانياً تبسيط قواعد الصرف والنحو بحيث نحافظ على الأصل السليم للغة ونجعل الفصحى العصية على الشعب تقترب شيئاً ما من العامية التي ألفها . ثالثاً اهمال المفردات الماتة وايجاد المصطلحات التي تفتقر اليها لغتنا وتوحيدها في شتى الأقطار العربية .

وسنحاول فيما يلي أن ندل على السبل المؤدية الى هذه الأغراض الثلاثة .

فعسى أن يوافقنا المفكرون في الاصلاح على تبني الحلول المعروضة .

— —

اقترح بعض المتطرفين استبدال الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية والاستعاضة في الوقت نفسه عن الحركات بالأحرف الصوتية . وقصدهم من ذلك تسهيل القراءة بحيث يرتسم الحرف الواحد بالشكل نفسه اينما وقع في الكلمة وبحيث لا يختلط الأمر على القارئ في لفظ بعض الكلمات التي تتشابه في الكتابة إذا وردت بغير تشكيل . ومن الأمثلة على ذلك « سكر » و « سكّر » أو « نسر » و « نسّر » .

إننا رغم معالجتنا هذا البحث بروح علمية بحتة لا يسعنا الا ان نستهجن هذا الاقتراح الجريء لما فيه من التنكر للشخصية العربية . فان هذه الأحرف تمثل جزءاً من قوميتنا وتاريخنا فلا يجوز اننا التفكير مطلقاً في التخلي عنها لاسيما أنها لا تحول دون غرضنا من تسهيل الكتابة . فالحروف العربية وإن كان بعضها يكتب على اربع صور الا انها تظل محتفظة بالأصل الذي بنيت عليه سواء جاءت في بدء الكلمة أم في وسطها أم آخرها أم جاءت منفردة . ولنأخذ الحيم مثالا على ذلك نجدها تكتب في حالاتها الأربع هكذا : ج ج ـجـ ج محتفظة بأصلها بعد اختصار جزئها . فلا مجال اذن للتذمر من صعوبة قراءتها .

أما بشأن الالتباس في قراءة الكلمات المتشابهة كتابة المختلفة لفظاً فلا أسهل من إزالته بتشكيل حرف او حرفين منها .

وبعد لقد فات مقترحي استعمال الأحرف اللاتينية أن في طريقة الكتابة العربية مزية تحملنا على التمسك بها أشد التمسك . فهي باختصار الجزء الأخير من الأحرف توفر علينا وقتاً وجهداً مادياً يصرفهما من يكتب بلغة أجنبية زيادة عما يصرفه من يكتب باللغة العربية. هذا فضلا عن أن الحيز الذي تستلزمه كلمة أجنبية هو أكبر من الحيز الذي تكتفي به الكلمة العربية . فاذا أردنا ترجمة جملة عربية مدونة في سطر واحد إلى الفرنسية أو الانكليزية أو سواها لوجدنا تلك الجملة قد احتاجت إلى سطرين أو أكثر .

إننا لا نسوق هذا لندل على وفر نحصل عليه من الورق الذي نخط فيه لكن لنظهر مزية السرعة التي تتصف بها حروف اللغة العربية لا في الكتابة فحسب بل في القراءة أيضاً .

فاذا فرضنا أن العين تستوعب سطراً واحداً ففي السطر العربي من الكلمات أكثر مما في السطر المكتوب بالحروف اللاتينية ؛ وبالتالي تنقل العين إلى الدماغ في المدة نفسها معاني أكثر لا سيما إذا كانت القراءة صامتة .

فهل من يفكر في هذا العصر ، عصر السرعة ، في التخلي عن حروفنا التي تمتاز بالسرعة إن في الكتابة أو في القراءة ؟

فما يسمونه إصلاحاً في هذا الاقتراح ليس إلا تخريباً .

أما النقائص التي تستدعي الإصلاح فعلا فهي أولا همزة القطع ، ثانياً الحروف الزائدة والحروف المحذوفة ، ثالثاً الألف المقصورة والممدودة والتاء المربوطة والمبسوطة .

أما همزة القطع فاننا نرى أن تعتبر حرفاً كباقي الأحرف . ولو فكرنا ملياً لوجدناها كذلك لا أكثر ولا أقل . فلم لا يكون لها صورة خاصة ترسم بها في الكتابة على شكل واحد سواء وقعت في بدء الكلمة أم في وسطها أم في آخرها وسواء جاءت ساكنة ، مضمومة ، مفتوحة أم مكسورة ؟ إننا بذلك ننقذ ملايين الطلاب وألوف المعلمين ومئات الكتاب من هذه المشكلة التي آن لنا أن نحلها .

أما بشأن الحروف الزائدة فلا ينبغي أن تزاد مهما كانت الأسباب . فنكتب اسم « عمرو » بلا واو زائدة سرقها من « داود » ونكتب جملة

« الضيوف رحلوا » بلا ألف زائدة . وهلم جرا .

وكما لا تجوز الزيادة لا يجوز الحذف . فنبقي ألف ابن وابنة واسم وألف « ها » التنبيه و « ذا » الإشارية أينما وقعت هذه الكلمات . ونبقي أيضاً ألف « ما » الاستفهامية ولو كانت مجرورة بالحرف أو بالاضافة . ونكتب الألف الملفوظة في بعض الكلمات التي اصطلح الأقدمون على حذفها ومنها : إله ، طه ، يس ، لكن .

أخيراً تكتب الألف اللينة في آخر الكلمة ممدودة بصورة مطلقة وتكتب التاء مبسوطة مهما كان نوعها ونوع الكلمة التي تنتهي بها .

— ٤ —

يتكلم العرب اليوم دون أن يعربوا الكلمات أينما وقعت في الجملة وفي رأينا أن قواعد النحو يجب أن تماشي هذا الاتجاه العام ، وذلك بأن نلغي من النحو أبواب الرفع والنصب والجزم والجر . فتأتي الكلمة ساكنة مهما كان محلها من الإعراب . أما إذا وليها أسم معرف بأل فيفتح الحرف الأخير من الكلمة التي تسبق ذلك الاسم مجاراة لألف أل . فتقول : « سمعنا صوت » و « سمعنا صوت الخطيب » ، أي اننا في المثال الثاني شكلنا التاء بالفتح ملاءمة للألف التي تليها من كلمة « الخطيب » .

رغم ما في هذا الاقتراح من الجرأة والتنكر للماضي فاننا نراه القاعدة الأساسية التي يجب أن يبنى عليها كل إصلاح ذي جدوى . ألم نلمس أن الإعراب قيد ثقيل للأقلام والألسنة ؟ إن عرب اليوم كسروا عملياً هذا القيد وأطلقوا لسانهم على هواه فلم يبق علينا سوى أن نقرهم على هذا التحرر .

وبنتيجة إلغاء الإعراب يتحتم بناء المثنى والجمع المذكر السالم على ياء ونون فنقول : « قام التلميذين » و « جلس المعلمين » كما في اللغة العامية تماماً . وتظل « كلا وكلتا » مبنيتين على الألف وتكون الأسماء الخمسة مبنية على الواو فنقول : « جاء أبوك ورأيت أبوك ومررت بأبوك » .

ولا يستغربن أحد هذا الرأي . فمن العرب قديماً من كان يلزم المثنى الألف رفعاً ونصباً وجراً ، وهم بنو الحارث بن كعب ، وخثعم وزبيد وكنانة وآخرون . فكانوا يقولون : « جاء الرجلان ورأيت الرجلان ومررت بالرجلان » . وعليه قول الشاعر :

تزود منا بين أذناه طعنـــــــة دعته إلى هابي التراب عقيم

وقول الآخر :

إن أباها وأبا أباهـــــــا قد بلغا في المجد غايتاهـــــا

هذا أساس ما يجب أن يقوم به المفكرون في تبسيط قواعد اللغة . على أن ثمة نواحي أخرى ثانوية يجب أن يتناولها الاصلاح ، وهذه أهمها :

١ — إلغاء نون النسوة والاستعاضة عنها بواو الجماعة .

٢ — إجازة قول « جاء الرجال وجاؤوا الرجال » على لغة من تكلم بذلك من العرب الأقدمين وقد ورد ما يشبه هذا القول في أبيات شعرية لبعضهم .

٣ — إجازة النسبة إلى الجمع . وقد ورد ذلك أيضاً في كلام العرب الأقدمين . فكان منهم مثلا « الأنصاري والثعالبي » . وبعد فكثيراً ما يكون المقصود من النسبة إلى اسم مفرد غير المقصود من النسبة إلى اسم جمع . فاذا قلت « المصرف الدولي » — بفتح الدال — عنيت المصرف الخاص بالدولة . أما إذا قلت « المصرف الدولي » — بضمها — أردت به المصرف المشترك بين عدة دول . هذا فضلا عن أننا لا نستطيع في بعض الحالات إلا أن ننسب إلى اسم جمع فنقول « المؤتمر النسوي » ولا يصح من حيث القصد أن نقول « المؤتمر الامرئي » ؛ ونقول : « المجتمع العالي » ولا يستقيم المعنى إذا قلنا « المجتمع العالمي » .

٤ — إجازة تقديم الحال على صاحبها . فيصح بنتيجة ذلك أن نقول : « مسرعاً انزل » أو « انزل مسرعاً » . ومن الواضح أن ثمة اختلافاً دقيقاً في المعنى بين تقدم الحال وتأخرها . فالمقصود في المثال الأول الإسراع في النزول أكثر من النزول نفسه كما هو المقصود في المثال الثاني : فلم نمنع عن الكتاب العرب الاستفادة من هذا التفاوت في المعاني ؟ لا شك في أن تقديم كلمة على أخرى يكسبها قوة ويجذب انتباه السامع إليها .

٥ — أما بشأن تذكير وتأنيث العدد فاننا نرى أن تكون الأعداد المفردة من ثلاثة إلى عشرة مذكرة دائماً . أما إذا كان لا يليها معدود فتكون مؤنثة ما عدا عشرة ، فتتبع المعدود إن جاءت مركبة .

هذا أهم ما نرى وجوب تبسيطه من قواعد اللغة وإننا في معظم النقاط إنما نجاري اللغة العامية . على أن هنالك نواحي أخرى قد لا تكون أقل أهمية مما ذكرنا . ولكننا اكتفينا بهذا القدر لأن من رأينا أنه ليس من الحكمة أن يتم التطوير دفعة واحدة لئلا تجد الفوضى سبيلا إلى هذه الحركة الإصلاحية . وكما أن التطور يتم بصورة تدريجية هكذا يجب أن يكون التطوير أيضاً .

وبعد إن حياة اللغة لا تقاس بالزمن بل بقيمة ما كتب بها . ومن البين أن الإنتاج العلمي والأدبي عند العرب في السنوات الخمسين الأخيرة هو من الوفرة والجودة والتنوع بحيث يفوق ما أنتجه العرب في القرون الخالية .

الا أن الأجيال المقبلة تترقب منا تيسير السبل لها لتفوز في شتى ميادين الحياة لا سيما ميدان العلم والمعرفة .

— ٥ —

إن من يتصفح المعاجم العربية ، قديمها وحديثها ، يقع على مئات من المترادفات من أسماء أو صفات للأسد والسيف والناقة والحصان والدرع وما إليها ؛ على حين أنه إذا أراد تسمية أبسط شيء من الآلات والأدوات التي نستعملها في القرن العشرين لا يجد لها لفظاً في معاجمنا .

فما انتفاع المتكلم أو الكاتب بهذه الوفرة الفائضة عن حاجته إذا كان يفتقر إلى كثير من الأسماء والصفات والأفعال الضرورية ؟ لقد اتسعت في هذا العصر آفاق العقل البشري وازدادت الأشياء المستحدثة التي بات الإنسان يستخدمها في حياته اليومية . أما معجمنا فلا يزال يعيش على ما خلفه لنا الجدود دون زيادة ولا نقصان .

لقد فقد عرب اليوم الروح السمحة والمرنة التي كان يتصف بها عرب الأمس . دليلنا على ذلك وجود كلمات تعبر عن كل معنى مطروق في عصرهم ووجود أسماء لكل شيء كان مستعملا عندهم . فقد ابتدعوا المفردات التي يحتاجون إليها ولم يحجموا من جهة ثانية عن أن يدخلوا إلى لغتهم كلمات أجنبية أوردوها بلفظ أصحابها أو نحتوها وفق أذواقهم السليمة فجاءت موسومة بطابعهم الخاص حتى ليظن أنها عربية الأصل . وها هو المعجم العربي يذخر بمئات الألفاظ الدخيلة التي أغنت اللغة دون أن تسيء إلى عروبتها .

أما عرب اليوم فمن المؤسف حقاً أن يكونوا قد وصلوا إلى منزلة جعلتهم يتلقون مبتدعات الغرب فلا يقبلون بأسمائها الأعجمية ولا يوجدون لها أسماء عربية .

فالواجب القومي يحتم علينا وضع كلمات جديدة تستلزمها حياتنا العصرية على أن يتفق عليها العرب جميعاً في شتى أقطارهم . فلقد لاحظنا أن المصطلحات العلمية ، إذا وجدت ، تختلف في سوريا عنها في مصر بحيث ان المصري قد لا يفهم ما يكتبه السوري في المواضيع العلمية . وهذا ما يهيب بنا الى توحيد تلك المصطلحات .

إننا ندعو إلى وضع معجم جديد نسقط منه الكلمات الماتة او المهجورة أو النافلة ونضيف اليه المفردات المستحدثة والمصطلحات العلمية الجديدة الموحدة . على أنه ينبغي أن يشرف على وضع هذا المعجم لجنة مختارة من الأقطار العربية كافة تضم لغويين ينمون باللغات الأجنبية وعدداً كافياً من الخبراء في مختلف العلوم والصناعات والفنون .

حلب

نصرة سعيد